المشـــاهد التـاريخية المـؤلمة عند ابن اللبانه (٥٠٧هـ)

دراسة موضوعية

إعـداد

د. ابتسام رجب عبد الجواد طبل

الأستاذ المساعد فى كلية العلوم والآداب طبرجل – جامعة الجوف

المستخلص:

يهدفُ هذا البحث إلى دراسة الأشعار التي تناولت المشاهد التاريخية المؤلمة عند "ابن اللبانة" مبرزًا الدوافع النفسية، والتجربة الشعرية لإنتاج مثل هذه الأشعار التي صارت علامة بارزة على تلك الحقبة التاريخية المهمة في الدراسات الأندلسية ،حيث كان شاعرنا شاهدًا على تلك الأحداث التي مرت في دولة (بني عباد) وكانت دافعًا لغرض الرثاء، ومثلت هذه المشاهد ركنًا مهمًا فيها كموضوع ينضوي تحت الغرض الذي من أجله قيلت القصيدة. وبما أنّ النص الأدبي يحمل قيمة تاريخية ،فقد تمّ تشغيل فعل التاريخ في النص الرثائي العربي منذ الجاهلية حتى العصر الأندلسي،ولقد ابتدع الشعراء الأندلسيون نوعًا جديدًا نالوا به السبق على شعراء المشارقة وهو "رثاء المدن والممالك " الذي نبعت سماته وأفكاره من طبيعة الاضطراب السياسي في الأندلس.

يهدفُ هذا البحث إلى دراسة الأشعار التي تناولت المشاهد التاريخية المؤلمة عند "ابن اللبانة" مبرزًا الدوافع النفسية، والتجربة الشعرية لإنتاج مثل هذه الأشعار التي صارت علامة بارزة على تلك الحقبة التاريخية المهمة في الدراسات الأندلسية ،حيث كان شاعرنا شاهدًا على تلك الأحداث التي مرت في دولة (بني عباد) وكانت دافعًا لغرض الرثاء، ومثلت هذه المشاهد ركنًا مهمًا فيها كموضوع ينضوي تحت الغرض الذي من أجله قيلت القصيدة. وبما أنّ النص الأدبي يحمل قيمة تاريخية ،فقد تمّ تشغيل فعل التاريخ في النص الرثائي العربي منذ الجاهلية حتى العصر الأندلسي،ولقد ابتدع الشعراء الأندلسيون نوعًا جديدًا نالوا به السبق على شعراء المشارقة وهو "رثاء المدن والممالك " الذي نبعت سماته وأفكاره من طبيعة الاضطراب السياسي في الأندلس.

الكلمات الإفتتاحية: الْمشاهدُ التّاريخيةُ؛ المشاهد الْمؤْلِمةُ؛ ابن اللبّانة (٥٠٧هـــ).

الْمشاهدُ التّاريخيةُ الْمؤْلِمةُ عند ابن اللبّانة (٥٠٧هـــ)

"دراسةٌ مَوْضُوعيّةٌ"

١-المقدمة : أهداف البحث، والمنهج ، وسبب الاختيار .

٢-التمهيد : القصيدة الأندلسية ومواكبتها للمشاهد التاريخية المؤلمة .

٣-أولاً : المبحث الأول : رثاء الْمدن /ومحْنةُ الْفقد.

٤-ثانيًا : المبحث الثاني :بنْيّة النّدْبِ /والتّعزي بالماضي

٥-ثالثًا: المبحث الثالث :بنْيّة النّدْب /وهدْم النّموذج

٦-رابعًا :المبحث الرابع : بِنْيّة النّدْبِ/ ومحنةُ الأَسْر

٧-الخاتمة وأهم النتائج

٨-المصادر والمراجع

١-المقدمة

-يهدفُ هذا البحث إلى دراسة الأشعار التي تناولت المشاهد التاريخية المؤلمة عند "ابن اللبانة" مبرزًا الدوافع النفسية، والتجربة الشعرية لإنتاج مثل هذه الأشعار التي صارت علامة بارزة على تلك الحقبة التاريخية المهمة في الدراسات الأندلسية ،حيث كان شاعرنا شاهدًا على تلك الأحداث التي مرت في دولة (بني عباد) وكانت دافعًا لغرض الرثاء، ومثلت هذه المشاهد ركنًا مهمًا فيها كموضوع ينضوي تحت الغرض الذي من أجله قيلت القصيدة. وبما أنّ النص الأدبي يحمل قيمة تاريخية ،فقد تمّ تشغيل فعل التاريخ في النص الرثائي العربي منذ الجاهلية حتى العصر الأندلسي،ولقد ابتدع الشعراء الأندلسيون نوعًا جديدًا نالوا به السبق على شعراء المشارقة وهو "رثاء المدن والممالك " الذي نبعت سماته وأفكاره من طبيعة الاضطراب السياسي في الأندلس.

وقد يتسائل الباحث عن سبب كون التاريخ باعثًا للرثاء ، وللإجابة عن ذلك ينبغي لنا استعداء واقع الرثاء ، حيث ينشأ في لحظة يفني عندها التاريخ ، وينتهي بالنسبة للمرثي أو المدينة المرثية ، فالمرثيون بموتهم ، والمدينة بحرقها ، ينتهي تاريخها ، وينتهي تاريخهم ، وتقف أعمالهم وإنتاجهم ويصبحون كتلاً جامدة أخذت حيزًا محددًا في ذاكرة الأشياء ،وحينما ينتظم التاريخ داخل النص الرثائي يصبح بنْيّة ، ثم بالتالي موضوعًا جزئيًا في الغالب ،

أو مركزيًا في النادر تبعًا لتعدد المقاصد واختلاف التجارب ، وهذا يدل على تقاطع الطرفين .

وبما أن الرثاء هو مديح للإنسان بعد موته فيحضر الرثاء في المديح ، ويحضر التاريخ في الرثاء ، فيكون التاريخ في سياقه الخارجي فضاءً واقعيًّا،أو متخيّلاً لتكوين الْمرثية وتأليفها ، ويمثل التاريخ في قصيدة الرثاء للمدينة الأندلسية فضاءً بانيًا ومُهيْكلاً وجزءًا فاعلاً لايتجزأ ، ومؤثرًا أبلغ تأثير.

-ولم يخرج موضوع الرثاء عند شاعرنا (ابن اللبّانة) عن طريقة المشارقة التي تدور في الغالب في أفلاك ثلاثة هي : التأبين والندب والعزاء.

-والمقصود بالدراسة الموضوعية: أن فن الرثاء من الموضوعات التي استقرت في الذاكرة النقدية منذ العصر الجاهلي حتى العصر الحديث ضمن موضوعات الشعر التقليدية.

واعتمدنا على المنهج التكاملي "وهو المنهج الذي يجمع بين التاريخ والوصف والتحليل ؛ فالنص الشعري هو الذي يستدعيها والشعر الجيد يقف دائمًا وراء كل عملية تحليلة وصفية .

التمهيد

- يُعدُّ " ابن اللبّانة"[١] (ت ٥٠٧هـ) من الشعراء الأندلسيين المهمين في الدولة العبادية ،حيث رثي المشاهد المفجعة التي حصلت في تلك الفترة الزمنية (القرن الرابع الهجري) وهو انهيار حكم

[١] معظم المصادر والمراجع التي تناولت شاعرنا بالذكر تقول هو " أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي الدّاني ، المعروف بابن اللبّانة "يُفهم من هذا أن اسمه محمد ، وأنه صاحب كنيتين هما أبو بكر ، وابن اللبَّانة ، وقد ذاعت الكنية الثانية ، واشتهرت حتى كادت أن تحل محل الاسم ، ويُفهم –أيضًا – أن شاعرنا عربيَّ الأصل ، لخميَّ الانتماء على كثرة تحمُّسه للخميين من مدائحه (لبني عباد) وافتخاره بهم وماذاك إلا أنهم ينتظمون وإياه في نسبٍ واحد .ولقد أحاط الغموض بتاريخ مولده إلا أن المصادر اجمعت أنه نشأ في مدينة (دانية) عدا مرجع واحد ذكر أنه من أهل (مالقة) ، وتذكر بعض المصادر أنه ولد في الفترة (٤٣٠-٤٤٠هـ) وتوفي سنة (٥٠٧هـ) وهو أحد الشعراء الأندلسيين الكبار وقد كانت وفاته (بميورقة)كان أديباً ناثراً.له من الكتب المشهورة ثلاثة هي (مناقل الفتنة)، و(نظم السلوك في وعظ الملوك) و(سقيط الدرر ولقيط الزهر) ولكن هذه الكتب فقدت .ينظر في ترجمة الشاعر :ابن خاقان أبو نصر (ت ٥٢٩هـ) قلائد العقيان ، ومحاسن الأعيان ، تح : حسين يوسف خربوش ، مكتبة المنار ، الزرقاء ، الأردن ، ط١ ، ١٩٨٩، ص ٧٧٦-٧٩٠، الشنتريني ، أبو الحسن على بن بسام (ت ٥٤٢هـ) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تح إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط١ ،١٩٩٧، ق٣، مج ١، ص ٦٦٦-٧٠٢. المراكشي ، عبد الواحد بن على (ت ٦٤٧هـ) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تح : محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع ، القاهرة ط١ ، ١٩٩٤، ص ١٣١-١٣٦.ابن خلكان ، أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ) وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، تح : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٧، مج ٥ ص ٢٧-٣٩ ، ابن سعيد المغربي

دولة (بني عباد) على يد المرابطين المغاربة ، وكان شاعرنا حاضرًا لتلك المشاهد ؛فانفعل بها انفعالاً شديدًا ،وكان صادقًا في مشاعره ؛ لأنه صحب (المعتمد ابن عباد) وارتبط اسمه به، ونشأت بينهم روابط قويه ؛ فما كان منه إلا البكاء على مجد تليد وقف على بقاياه شاعرنا ، كما يقف شاعر البادية على الأطلال فتذوب ذاته أمامها وتتفاعل معها، وإن كانت لا تردُّ صوتًا ، ولايُسْمع لها صدى . ولقد امتزجت تلك المشاعر التي أشعلتها نار الحوادث في مواضيع متداخلة إلا أنها تنضوي تحت موضوع عام وهو (الرثاء) [١] فامتزج رثاء المدينة الزائلة بالبكاء على "بني عباد" ومدحهم بكل صفات الجمال والكمال البشري .فصوَّر تفرُّق شملهم وذهاب عِزَّهم ، لأنه كان يُعبر أصدق تعبير عن شعوره ، وما يعتلج في قلبه المكلوم ، وفؤاده المصدوع ونفسه الحزينة ، وذلك لأنَّ شاعرنا (ابن اللبّانة) قاسم صديقه "المعتمد بن عباد" السّراء والضّراء فكان خِلاً وفيًّا وصديقًا مواسيًا ، حيث حرص على زيارته في منفاه في المغرب زيارات مودة ووفاء وصرح في إحدى زياراته قائلاً إنها "وفادة وفاء وليست وفادة استجداء "[٢]وظل يبكيه ، ويروي أخبار أسره وذله وتعذيبه على الملإ دون خوفٍ، أو تفكيرٍ في عاقبة هذه الرواية فضرب بذلك مثلاً رائعًا للوفاء في زمن قلَّت فيه هذه المشاعر والروابط [٣] حيث اقترن تاريخه بتاريخهم ومجده بمجدهم ، ونال من رِفْدهم وعطاياهم الكثير ؛ فلا بُدَّ من أن يعبر عن فجيعته وفجيعتهم الكبيرة " والرّزْءُ يُعظم فيمن قدره عظما" وما أعظم(بني عباد) في نظر شاعرنا فهم الذين ألهموه قول الشعر ، ولاغرابة في أن يؤدي بعض ما عليه من دَيْن وهو مكلوم الفؤاد شارد اللب.

على بن سعيد (ت ٦٨٥هـ) المغرب في حلى المغرب ت : شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ط١ ، ١٩٦٤، ج٢/ ص ٤٠٩ ، ٤١٦.

[١] الرّثاءُ:من رثى فلان فلاناً، يَرْثيهِ وَمرْثِيَةً إذا بكاهُ بعدَ موتِه ومرثاةً فإن مدحَهُ بعد موتِهِ قيلَ رثّاهُ، يرثيهِ وترثيهِ ورثيتُ الميتَ، رثياً ورثاءً ومرثاةً ومرثيةً. ورثيتُهُ، مدحتُهُ بعدَ الموتِ وبكيتُهُ ورثوتُ الميتَ أيضاً بكيتُهُ وعدَّدتُ محاسنَهُ . وكذلك إذا نظمتُ فيه شعرا .انظر : ابن منظور : لسان العرب الدار المصرية للتأليف والترجمة د.ت ج١٩/ ص ٢٢-٢٣ مادة (رثى) . وتعريف الرثاء اصطلاحًا عند النقاد والباحثين الأدباء "أن الرثاء فن من فنون الشعر الغنائي يعبر فيه الشاعر عن حزنه وتفجعه لفقدان حبيب وهو يتلون بألوان مختلفة تبعًا للطبيعة والمزاج ، والمواقف فإذا غلب عليه البكاء على الراحل ، وبث اللوعة والحزن ، كان ندْبًا ،وإذا غلب عليه تسجيل الخصال الحميدة التي تمتع بها الفقيد في حياته كان تأبينًا ، وإذا غلب عليه التأمل في حقيقة الموت والحياة كان عزاءً"انظر :إيميل ناصف:أروع ماقيل في الرثاء ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الثانية .(د، ت).

[٢] المقرّي ، نفح الطيب ج٤/٢٥٨

[٣] انظر : شعر ابن اللبانة الداني "دراسة وصفية تحليلية "رسالة ماجستير :عواطف صالح بن محمد / السعودية : جامعة أم القرى : اللغة العربية ١٩٩٧م ص ١٣٣

- وهذا الاختيار للأشعار الرثائية وما تحمل من ندب وبكاء وحسرة على زوال المدينة وزوال بني عباد (وإن كان الموتُ معنويًّا) إلا أنه يعني للشاعر الكثير، ويعبر عن علاقة وطيدة بين المبدع وما أبدعه من قصائد، وليثْبت لنا هذا الاختيار محاولة هذا الشاعر عمل مزيج من الانفعال والحس الجماعي داخل قصيدته، وليحاول إيصال خبرة عاطفية وعقلية وجمالية إلى القارئ وهو يحاول إثبات تفاعله مع الواقع ومع الحياة التي يعيشهاهو أو تعيشها قصيدته، أو حتى بلاده إذا كانت الذات لديه تتوارى أمام (النحن) وعندئذ نرى أن "النحن "تحتل مكانة كبيرة في شعره ، وما جاء هذا إلا من قبيل التأكيد على أن الأديب كائن اجتماعي لايستطيع أن ينفرد بأدبه عن الناس حوله "فكان صدى لحياتهم وكانوا صدى لإنتاجه"

- فالقصيدة الأندلسية قد تحولت في هذه الحالة إلى وثيقة تاريخية من خلال تتبعها لكل حدثٍ ، فكانت صدى لذلك الحدث الذي لايمثل نكْبة على مستوى التّحضر المادي وفقط بل على المستوى المعنوى بزوال (دولة الأدب) وتشتت الأدباء من بعد زوال ملك بني عباد.

المبحث الأول :رثاء المدن / ومحنة الفقد

-لقد وقف شاعرنا "ابن اللبّانة " أمام سقوط دولة (بني عباد) باكيًا ومتحسرًا ونادبًا [1]على الحال الذي آلت إلي هذا السقوط على يد المرابطين بقيادة (يوسف بن تاشفين) ولقد امتزج رثائه للمدينة (إشبيلية) مقر حكم بني عباد (دولة الأدب) بالبكاء على (المعتمد بن عباد) الرمز الوطني لكل الأندلسيين ، وهناك جملة من الصفات والقيم المشكلة لبنية الشخصية المثالية في المجتمع العربي وقتذاك الكرم ، المروءة ،

---

[1] الندب : و هو النواح و البكاء على الميت بالعبارات المشجية و الألفاظ المحرقة التي تصدع القلوب القاسية و تذيب العيون الجامدة ، إذ يولول النائحون و الباكون و يصيحون و يعولون مسرفين في النحيب و النشيج و سكب الدموع . و قد عرف العرب منذ العصر الجاهلي هذا النوع
وأقسام الندب ١- ندب الأهل والأقارب وهو أقدم ألوان الندب .٢- ندب الدول العربية التي سقطت خلال التاريخ الوسيط و أول دولة بكاها الباكون دولة بني أمية التي سقطت سنة ١٣٢ للهجرة وأهم من بكاها أبو العباس الأعمى الشاعر المكي . ولقد أصبح بكاء الممالك المنهارة والمدن الذاهبة فن أندلسي أصيل و جدت دوافعه في المشرق و المغرب على السواء و خص الأندلس ببعضها و تفرد بأنه جرى مع هذه الدوافع إلى غايتها ؛ فكان له معها قصيد رائع برع فيها (ابن اللبّانة) في بكائه (على بني عباد) الذي فقدهم معنويًا بزوال ملكهم وماديًا بسقوط المدينة في يد المرابطين المغاربة .انظر : الأدب الأندلسي " من الفتح حتى سقوط غرناطة (٩٢-٨٩٧هـ) د: منجد مصطفى بهجت ، الموصل ، دار الكتب للطباعة والنشر (١٩٨٨م) ص ١٢٥

الحِلم ، التديُّن ، النسب ....تلك بعض من القيم التي ظل يضعها الشاعر العربي نصب عينيه ، وهو يتعرض للشخصية سواء الرفع من قيمة الشخص ، أم الحطّ منها أم البكاء عليها .

فالفرق بين المدح والرثاء هو (السياق) الذي اندرجت في كنفه القصيدة ، وشكّل التاريخ فضاءً وسياقًا خارجًا لغرض الرثاء ،وإذا لم نعرف تاريخ الحادثة التي قيلت فيها القصيدة ، فلولا المعرفة بمقامات القصائد ، إضافة إلى بعض أبيات البكاء الصريحة لبتنا بصدد المديح بالنسبة لمعظم تلك القصائد.

١-من أروع قصائد الرثاء العاطفي في شعر ابن اللبَّانة قصيدته الشهيرة (الدالية) التي تُعَدُّ صدى للنكبة التي عايشها الشاعر، ورأى أحداثها بأم عيْنيه ، لذلك تمكن من تصوير مظاهر الكون التي ضَحَتْ منذ أن قُهِرَ صديقُهُ ونزع سلطانه ، وسيق وأهله أسرى وحُمّلوا على السفن التي أخذتهم إلى منفاهم (بأغمات) في المغرب ، وقد ذاعت هذه القصيدة واشتهرت لما فيها من مشاعر الإخلاص والمودة والحسرة التي أبداها الشاعر نحو (المعتمد وأهله) من خلال وصفه لمشاهد السقوط الذي يهزُ المشاعر ويثيرُ الحزن في النفوس ، خاصة عندما أكد أنه مهما نَسي فلن ينسَ منظر السفن التي حملتهم، وكأنهم أمواتٌ بألحاد ، وسط بكاء ونحيب الناس عامة ، والإشبيلين –الذين ملأوا الشطّيْن خاصة حيث سالت مدامعهم غزيرة على ضفاف ذلك النهر الذي يُشَيِّعون فيه قطعًا من أكبادهم كاللآلئ وهي تطفو على زبده ، ولم يَفُتْ شاعرنا تَصويرُ حال نساء (المعتمد) وقد أُخْرِجْنَ من قصورهم سافرات بعد أن كُنَّ محجباتِ مصوناتٍ ؛ إذ سارت السفن بهن والنوح يصحبها كما يصحب الحداء الإبل في الصحراء ، ولم يكتف ابن اللبّانة ببكائه ، وبكاء الناس ، ولكنه جعل بَعْضَ مظاهر الكون تشترك معه في البكاء ، فأبكى السماء والأرض على السادة العظماء الذين كانت ترسى بهم دعائم الحكم وكأنهم الجبال التي أرسى الله بها الأرض وبذلك ملأ القلوب في كل مكان –حتى يومنا هذا- عطفًا وأسىً على المعتمد وكأنه غسل بدموعه وتفجعه سيئات (المعتمد) وهفواته وأبرز عظمته وشجاعته ونبله وكرمه:

يقول الشاعر:[١]

١-تبكي السماء بمزنٍ رائحٍ غادي :. على البهاليل من أبناء عباد

٢- على الجبال التي هُدّت قواعدُها :. وكانت الأرضُ منهم ذاتَ أوتاد

٣- والرابيات عليها اليانعات دوت :. أنوارها فغدت في خفضِ أوهاد

٤- عِرِّيسةٌ دخلتها النائباتُ على :. أساودٍ لهمو فيها وآساد

٥- وكعبةٌ كانت الأمالُ تعمرها :. فاليوم لاعاكف فيها ولاباد

٦- تلك الرماح رماح الخط ثقفها :. خطب الزمان ثقافًا غيرَ مُعتاد

فهو يعلن عن موضوع القصيدة بكلمة " تبكي" فالأمر لا يحتمل أي تورية أو تأخير ، في ظل جسامة الحدث الطاريء وجلله ، وليكون لذلك وقعه المناسب. فقد جعل الشاعر السماء هي التي تبكي ، فمهما بكي الشاعر ، ومعه الخلق جميعًا فإن مقدار ما يبذرنونه من دموع لا يوازي جزءًا بسيطا مما تنقشع

[١] ديوان ابن اللبانة الداني " مجموع شعره " جمع وتحقيق د: محمد مجيد السعيد ، الجامعة العراقية الطبعة الثانية ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م) دار الراية للنشر عمان ط٢ ٢٠٠٨م : ص ٥٦

عنه السماء أكثر من ذلك.ولضخامة الحدث وصدق المشاعر تصحبهما المبالغة في الوصف وتكمن في التقابل الذي يمكن رسمه بين (السماء والأرض) فبكاء السماء يوحي بالتعاطف الإلهي ، ذلك التعاطف الذي من معانيه رفض سقوط دولة بني عباد ،وبمعنى من المعاني يعتبر فعل القيام بذلك مخالفة بحق رغْبة السماء ...!-لم يبدأ الشاعر بوصف مشاعره في هذا الموقف الرهيب ، ولم يتحدث عن حزنه لتلك المأساة إلا بعد عدة أبيات ، فقد بدأ بالطبيعة التي شخصها وأرخى عليها (الصفات الإنسانية) وأراد من خلالها أن يعبر عن مشاعره بتصويره لمشاعرها ، فكل منظر كان يسر الناظرين انقلب إلى أمّ ثكلى تنوح وتبكي على فقيدها ، لقد آلف (آل عباد) المكان كما ألفهم وأخذ الشاعر يتحسس موجودات المكان بعدهم فإذا بها في أسوأ حال .لقد أراد أن يجعل كل شيء حزينًا ، فإذا نظر إلى السماء ورأى مطرها الغزير راح يتصوره دموعًا منهمرة ؛ فهي باكية وبكاؤها ممتد في الزمن بين الحاضر والمستقبل مادام المعتمد وآله في منفاهم ، ونظر إلى الأرض ، وإذا بها تميد بعد أن كانوا جبالاً عليها، ونظر إلى الربى فإذا نباتها ذاوٍ، وعلى هذا المنوال يسير الشاعر في قصيدته التي تبلغ (ستة وخمسين بيتًا) يحشد فيها كثيرًا من المفردات والصور المعبرة عن طبيعة الحدث. ومن بين تلك المفردات (فلت ، الردى ، ثنتها، دنا الوقت ، هوت ، وهت ، ذوى ،خبا ، أقفر الحي ، خانت أكفهم ، فانقطعوا، غابت ، ليس للسعد فيهم نور اسعاد، بدلوا، غيرنا، أرواحنا في غير أجساد، لاتبغي شماتة أعداء وحساد، يخلعوا، خلعوا ، خلت ، افساد، العذاب ، مكسرة ، ذلّوا، مالهم حومة ، ولاناد ، غُلبوا، سيقوا ، حبل مقتاد، السجن ، لصوص ، عيث ، أغلال ، غيرت ، نشوات اللائذين بهم ، قامت قيامتهم ، إخماد ، أموات ، ألحاد ، لم تستر ، مزقت ، تمزيق ، تفرقوا ، الوداع ، ضجّت ، صارخة ، صارخ ، مفذّاة ، فاد ، النوح ، دمع ، قطعات أكباد ، الصادي ، الروع ، سكبت ، نار ، ظلام ، بعدكم ، غصص ، انكاد)

-إن حشد الشاعر لهذه المفردات كلها جعل قصيدته تطفح بالمشاعر الجياشة ، وهو يعبر عن موجودات (المكان) المتمثل في عناصر الطبيعة التي شاركت الشاعر أحزانه فهما في الحسرة سواء .

٢-ولكن لامعنى للأمكنة من دون بني عباد وآله .وأنه سيبكيه ، ويبكي أبناءه ، وآله بكاءً متصلاً؛ لأن المصاب عظيم ، وقد شاركته الطبيعة الحزن والتفجع ، إذ (بكى الحيا بدمع دائم الهملان)، و(شقت الرياح جيوبها) (وناح الرعد ، وصاح باسم المعتمد واكتست الدجى بالحداد) ، وهكذا بقية المظاهر الطبيعية التي أبدع الشاعر في تصوير مشاركتها إياه الحزن والتفجع يقول في ذلك [١]

ندبتُك حتى لم يُخلِّ لي الأسى:. دموعًا بها أبكي عليك ولادما

وإني على رسمي مقيمٌ فإن أمت :. سأتُرك للباكينَ رسميَ مَرسِما

ثم قال مبالغًا عن الطبيعة وأنها شاركتهم الأسف على بني عباد

بكاكَ الحيا والريحُ شقّت جيوبَها :. عليك وناحَ الرعدُ باسمك مُعْلِما

ومزّق ثوبُ البرقِ واكتستِ الدجى :. حدادًا وقامت أنجمُ الليلِ مأتما

وحار ابنك الاصباح وجدا فما اهتدى :. وغار أخوك غيظًا فما طمى .

[١] الديوان :ص ١٢٦

وما حل بدر التم بعدك داره :. ولاأظهر شمس الظهيرة مبسما

ومفردات التحسر والبكاء والأسف على ذهاب بني عباد واضحة في معجم الشاعر (مصاب هوى ، ولم يبق ، أرض المكارم معلم، ندبتك ، الأسى دموعًا ، أبكي عليك ، ولادما ، أمت ، الباكين ، بكاك الحبا، الريح شقت جيوبها عليك ، وناح الرعد باسمك ، ،ومزق ثوب البرق ، واكتست الدجى حداد، قامت أنجم الليل مأتما) ومن شدة حزن ابن اللبانة على المعتمد وما حلّ به ، جعل كل شيء يشاركه الحزن والأسى عليه ، فالطبيعة من حوله بكل ما فيها من مكونات وظواهر : كالبحر ، والدجى ، والإصباح ، والرعد ، والبرق ، ...تشاطره الحزن ، والألم ، وأرخي عليها (الأنسنة) وهو يعلى الصراخ والعويل ويطلب من الطبيعة أن تبكي معه ، فلقد انتهي عهد ربيع الشاعر في كنفهم وصار مهيض الجناح هائمًا على وجهه لايعرف له هدىً ولاسبيل ، فكل الأبواب في وجه قد سدت دونهم فأقام عليهم الحداد والمأتم.وكل هذه المظاهر الطبيعة(وتشخيصها) هي مشاركة وجدانية مع الشاعر حتى تخفف عليه وطأة الحدث وقسوة الفقد التي عانها بعد فراقهم .

فالشاعر بعد أن صور الطبيعة حزينة في أول أبيات القصيدة انتقل إلي الناس وكأنه مر بأرجاء المكان وصولا الى حيث يحتشد الناس للتوديع فيرى علامات الحزن والأسى بادية على ما مرّ به ، وهي إسقاطات نفسه الحزينة على تلك الموجودات ، وما أن وصل إلى (الوادي الكبير) حتى راح يصف مشاعر الناس إزاء موقف الرحيل ، ولكي يعطي للحزن بعدًا شاملاً جعل (المكان) محتشدًا وهم في عويل وندب وصراخ؛ فهو لن ينسىَ هذا المشهد الدرامي الحزين وإن نسيَ كل المشاهد. يقول في ذلك :[١]

-نسيتُ إلا غداةَ النهر كونهم :. في المنشآت كأموات بألحاد

-والناس قد ملآ العبرين واعتبروا :. من لؤلؤ طافيات فوق أزباد

-حُطُّ القناع فلم تُستر مخدرةً :. ومزقت أوجه تمزيق أبراد

-تفرقوا جيزةً من بعد ما نشأوا :. أهلاً بأهلِ وأولاد بأولاد

-حان الوداع فضجت كل صارخةٍ :. وصارخ من مفداةٍ ومن فاد

-سارت سفائنهم والنوح يصحبها :. كأنها إبل يحدو بها الحادي

-كم سال في الماء من دمع وكم حملت :تلك القطائع من قطعات أكباد.

-لقد عرض ابن اللبّانة "هذا المشهد على نحو من الصدق والدقة يُخيل لنا أننا نرى الناس يتزاحمون على ضفة (الوادي الكبير) ليروا السفن تبتعد عن الشاطيء بأصحابها وسط فيض هتون من العبرات "[٢]ومع مشاعر الحزن والأسى تندس صورة تبدو غريبة إلى حدٍ ما عن جو الحزن (من لؤلؤ طافيات فوق

---

[١] ديوان ابن اللبّانة ص ٦٠-٦١

[٢] الشعر الأندلسي ، بحث في تطوره وخصائصه ، إميلوز غرسيه غومس : ٦٣ترجمة حسين مؤنس :مطبعة لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ، ط١/، ١٩٥٢-ص٦٤

أزياد)، إنها صورة النساء المرتحلات من (آل عباد) "وهي لاتناسب والموقف الراهن ، لكن الشاعر فيما يبدو أراد أن يحظى بصورة تشبيهية للنساء ، وهن على سطح البحر ، فتشبههن باللؤلؤ كناية عن جمالهن وصفائهن ومكانتهن ، من غير اكتراث لملاءمتها وجو القصيدة العام ، وهذا يكثر لدى شعراء الأندلس ، إذ غالبًا ما تكون عنايتهم بالصورة المفردة المستقلة التي يحرص فيها الشاعر على أن يكون للبيت أو شطر البيت معنى قائمًا بذاته"[١]

-فعلاقة اللغة بالمكان الشعري تتم "على صعيد النسق التصويري ،أي مجموع التصورات التي تتشابك وتتقاطع فيما بينها وتحدد الرؤية تجاه العالم "[٢]ومن عناصر المكان التي كان لها دوراً بارزًا في الإبعاد هي (السفن) التي أعطاها دلالتين الأولى : هي الموت حينما شبهها بالألحاد ، والثانية :هي الإبعاد لما شبهها بالإبل "وكأنه بموقفه هذا يشاطر شعراء المشرق الإسلامي في نظرتهم إلى الناقة في بعض المواقف وبخاصة عندما نقل الظعن وترحل بأحبتهم بعيدًا عنهم"[٣] وابن اللبّانة إذ يلجأ إلى تشبيه السفينة بالناقة فإنه يكون قد زواج بين موجودات المكان وما استقر في الذاكرة من تراث المشرق .

٣-وبعد وصفه لموقف الوداع نجده يفتقد المعتمد في كل موقف ومكان مقارنًا بين ماكان عليه وما آل إليه ، وقد أدت أداة الاستفهام (أين) كررها في صدورِ أربعة أبيات ثلاثة منها متتالية غرضها إظهار مشاعر الفقد فضلاً عن الفعل (كان) في كل مرة منها يقارن بين الماضي الجميل والحاضر البائس .يقول في ذلك [٤]:

وأين ألقاكم في الروع من فئة :. مدربين على الهيجا أنجاد

ومن يُحق لي الآلاف من ذهب :. كأنما أشربتْ ماذية الحاد

كأنما سكبت في جوف بارقةٍ :. بنار نور من المريخ وقّاد

وأين معتمدُ نعمى يقسمها :. مرعىً وماءً لزوار وروّاد

وأين يوضح لي هدي الرشيد ضحى :. أجلو به في ظلام الغي إرشادي

وأين لي كنف المعتد منزلةً :. على احتفال من النعمى وإعداد

فالشاعر في هذا المشهد يتحسر على نفسه قبل أن يبكى وليّ نعمته فكم سعد في كنفهم وأُغدقت عليه النعم تترا ، وهو إذْ يفتقده فإنه يفقد معه الصديق وراعي الشعر والشعراء، كما فقد السيادة والسلطة والأنس ، "وبذلك سجن (المعتمد) انعطافة لا في حياة الشاعر فحسب ، بل في حياة الأندلس ، إنها البداية لسقوط الممالك ".[٥]

---

[١] انظر : هوية الشعر الأندلسي د: صالح محمود ص ٢٢٨

[٢] رسالة ماجستير سعدي يوسف ص ١٠ وشعرية المكان في الرواية الجديدة ص٧٣ لخالد حسين حسين

[٣] انظر : هوية الشعر الأندلسي ص ٢٢٩

[٤] الديوان :ص ٦٢

[٥] انظر :هوية الشعر الاندلس ص ٢٢٨

- فالأندلسي قد تفاعل مع محيطة تفاعلاً حقيقيًا حتى أصبح المحيط جنته وبستانه أين راح فهو معه لايفارقه ومن أجل ذلك نجده يهتم بالصورة الشعرية التي تترك إيحاءات عدة.

والأخيلة والصور تمثل ركنًا مهمًا من أركان القصيدة الأندلسية التي لاتستوى إلا بها

ثم قال ابن اللبانة يصور الفجيعة .[١]

لاعطر بعد عروس في حديثهم :. قد أقفر الحيُّ من هندٍ ومن عَاد

خانت أكفُهم الاعضادَ فانقطعوا :. وكيف تقوى أكفٌ دونَ أعضاد

غابت عن الفلك الأرضي أنُجمهم :. فليس للسَّعد فيهم نورُ إسعاد

وبُدّلوا غيرنا قومًا فنحن نرى :. تركيبَ أرواحنا في غير أجساد

إلى أن قال : إنا إلى الله في أيامهم فلقد :. كانت لنا مثلَ أعراسٍ وأعيادِ

فابن اللبانة يصور الواقع النفسي الذي يعانيه هو والأندلسيين حيث تبدلت الأفراح إلى أتراح وغابت النجوم من السماء وأقفر الحي ولم تعد ليال الأنس والأفراح حتى أرواحهم فارقت الأجساد عندما فقدوا (بني عباد) وهو يعتمد في تصوير ذلك على صدق المعاناة التي عاشها هو وبلاده لأن (المعتمد)[٢]كان يشكل رمزًا وطنيًّا لهم ، وهذه الصورة تنم عن عظم الفقد ، وثقل المصيبة على الأندلس والأندلسيين.

٤-ثم يلتفت إلى قاصدي بلاطهم والنازلين بفنائهم من شعراء وأدباء وغيرهم من طالبي الحماية أو القِرَى والنوال ليخبرهم بأن بلاط الكرم والجود قد أُغلقت أبوابه واقْتحِمَ عرينه وقُوِض بُنيانه ، لذلك عليهم بالاستعداد للرحيل ، خاصة وأن تلك الربوع – وما حوته من رياضٍ مثمرة ، و حدائق غنَّاء ،ووادٍ مخصّب –قد أصبحت مجدبة حيث جفَ زرعها ونضب ضرعها بعد أن كانت كعبة الآمال والقصاد حيث قال[٣] :

وكعبةٌ كانت الآمالُ تعمرها :. فاليوم لا عاكف فيها ولاباد

إلى أن قال [٤]:

غابت عن الفَلك الأرضي أنجُهم :. فليس للسّعدِ فيهم نورُ إسعادِ

-ثم يشير إلى ضرورة تقبل الحدث على مضض لأن المعتمد إنسان ، والإنسان مهما أُتي من قوة البأس وعظمة النفوذ والجاه لابد أن يجليه قضاء الله وقدره لذلك لايملك إلا أن يُعزي نفسه وسائر أهل إشبلية وكل محب لهذا الملك وأهله ومستظل بظلهم وأن يذّكرهم بأن (العباديين) ليسوا أول من خُلعوا ، فلقد

---

[١] الديوان :ص ٨٥

[٢] انظر : تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) ص ١٨٨-١٨٩

[٣] الديوان ص ٥٦

[٤] الديوان ص ٥٨

خُلع قبلهم العباسيون ووزراؤهم إذ خلت بغداد من سادتها قبل خلو حمص (إشبيلية) من سادتها حسبما جاء في بعض أبيات القصيدة يقول[١]

من يُؤتَ من مأمنٍ لك يُجده حَدرٌ :. وقاتلُ نفسِه مأن له رادِ

ومن يسدَّ عليه الضَّرَّ ناظره :. فليسَ ينفعُه أنَّ الضحى بادِ

وليس يغني موشىً من تحرزه :. وحتفُهُ واقفٌ منه بمرصاد

إلى أن قال :[٢]

-إن يخلعوا فبنو العباس قد خُلعوا :. وقد خلت قبلَ حمصِ أرضُ بغداد

هذه الأبيات وغيُرها تشير إلى أنَّ شاعرنا كان موفقًا في تصوير الصفات التي تُعلي مكانة المرثي في النفوس ،حيث انتقل إلى مآثر تلك الأسرة وأمجادها فأحسن التأبين ، وذلك على عادة شعراء العربية السابقين ، حيث كانوا ينتقلون من التفجع والعويل ، أو العزاء والمواساة إلى المدح والتأبين ليرسخوا في الأذهان مآثر من يرثونهم ، وقد كان شاعرنا موفقًا في تثبيت مآثر دولة بني عباد ،لكنه لم يكن مُوفّقًا فيما ذهب إليه من قول بأنَّ بني العباس خُلعوا قبل بني عباد ،"لأنَّ في هذا القول مجافاة لحقائق التاريخ ، ومجانبة للصَّواب ، إلا إذا كان الشاعر يريد زوال سلطان خليفة واحد من خلفاء بني العباس ، أما إذا أرادنا مقابلة دولة بني عباد بدولة بني العباس في تاريخ الزوال والسقوط:" فبنو عباد ثُلَ عرشهم سنة ٤٨٤ هـــ ولم يُثَلَّ عرش بني العباس إلا الأربعاء رابع عشر صفر سنة ستٍ وخمسون وستمائة...."[٣]فهي امتدت بعد وفاة الشاعر وقد توفي (٥٠٧هـ).

المبحث الثاني : بنية الندب / والتعزي بالماضي

-يبرز البعد التاريخي على اسلتهام وقائع الماضي ، للتعزى بها أو إسقاطها على الواقع ، عبر وسائل أخرى متعددة ، وأساليب متنوعة كما يبرز التاريخ مخدومًا لما تسجله وترصده تجارب الشعراء ، في مراثيهم من إنجازات المرثيين ، وملابسات موتهم والتأريخ لذلك ، لتصبح تلك المراثي مصادر تاريخية حقيقية ، يرجع إليها عند التوثيق والكتابة التاريخية [٤]

فالتاريخ في مفهومه الجديد كما يعرفه (هربارت) (هو تنوير الحاضر بضوء الماضي)

وأما (دافيد هيوم) الفيلسوف البريطاني فيرى بأن التاريخ في إمداد وإغناء المعرفة فيقول (إذا تأملنا قصر حياة الإنسان ومعرفته المحدودة حتى بما يقع في زماننا فلاشك في أننا نشعر بأننا نبقي أطفالاً في إدراكنا ، لو لم يمكن لنا هذا الاختراع (التاريخ) الذي يرجع بخبرتنا إلى جميع العصور الماضية ، وإلى

---

[١] الديوان ص ٥٨

[٢] الديوان ص ٥٩

[٣] الأمير شكيب أرسلان ،الحلل السندسية ج٣/ ص ٣٠٤

[٤] انظر : فن رثاء المدن في الشعر المغربي القديم من الفتح العربي الإسلامي إلى العهد العثماني : رسالة دكتوراه للطالب : عبد القادر شريط ، الجزائر ، باتنة ، ٢٠١٤م ص ٨٢

أقدم الأمم الخالية ، إن الرجل المطلع على التاريخ يمكن أن يقال عنه في بعض الوجوه (إنه يعيش منذ بداية العالم) "[١]

أما العالم جنتليه فيقر في موقع آخر بأن (الإنسان خارج التاريخ صفر)[٢]

كما أن الإنسان المطلع على التاريخ ، يعيش منذ بداية العالم ، ويضيف دائمًا إلى مخزونه العلمي والفكري ، عند النظر إلى الحضور التاريخي في رثاء المدن في الشعر الأندلسي نجد البعد التاريخي متجليًا في اتجاهين أولاً: التعزي بالماضي ، وثانيًا :انجازات المرثيين وأعمالهم وهما متداخلان .

١-وهو أول اتجاه إلى التاريخ الماضي ، للتعزي به والسكون حياله ، وقد جعل الرثاء (لبني عباد) قمة ، وبداية تعتبر أول نقطة في التعزى بالماضي ، وأعلاها (أن يعدد مجدهم) الماضوي (لأنها كانت أقوى دولة في عصر ملوك الطوائف الذي يمتد حتى استيلاء المرابطين على الأندلس فيما بين سنوات (٤٨٣-٥٠٢هـ/١٠٩٠-١١٠٨) وكانوا في الماضي كالجبال رفعةً وسموًا، وكأنهم ملوك الأرض وكانوا أعزاء نشأوا في الحروب ولهم صولات وجولات ويذكرهم بماضيهم العريق الذي ينتهي عند (اللخميين) من العرب إلى ملوك الحيرة من المناذرة "

-أما صورة الحاضر المؤلمة تتمثل في اللصوص الذين أحاطوه وأنزلوه من قصره وربطوه بالحبال وجلبوا السفن لاقتياده هو وأهله إلى المنفى في سجن أغمات .

والمعجم الشعري يعبر عن هذه المفارقة :فصورة الماضي العريق (الشواهق ، كهف معتصم، الأباطح ، العز مرتبة، عاد وشداد، كانوا ملوكًا، القصر ، بني السماء، مدربين على الهيجا، مرعى وماء لزوارٍ، مكارم ومعال)

-أما الحاضر المؤلم (تبًّا لدنيا أذاقتهم حوادثها ، يرح العذاب ، أسهم الدهر ، ذلوا، فانصرفوا ، ومالهم حومة ولاناد، غُلبوا ، سيقواعلى نسقٍ في حبل مُقتاد، تبدلوا السجن بعد القصر، وأحدقوا بلصوص، أغلال ، المنشآت كأموات بالحاد)

يقول الشاعر في هذه المفارقة بين الماضي المشرق والحاضر المؤلم [٣]

-همُ الشواهقُ فيها كهفَ مُعتصمٍ :. مثلَ الأباطحِ فيها خِصْبُ مرتاد

...ذَلُوا وكانت لهم في العزِّ مَرْتبةٌ:.تَحُطَّ مَرْتَبتيْ عَادٍ وشدَّادِ

-كانوا ملوكا ملوك الأرض فانصرفوا :. ومالهم حومة فيها ولاناد

حموْا حريمهم حتى إذا غُلبوا :. سيقوا على نسقٍ في حبل مُقْتَاد

---

[١] شوقي الجمل ، علم التاريخ ، نشأته وتطوره ووضعه بين العلوم الأخرى ، ط١ ، مصر ، مكتبة الأنجلو، ١٩٨٢، ص ٧٩

[٢] فاطمة قدورة الشامي ، علم التاريخ ط١ ، بيروت ، دار النهضة العربية ٢٠٠١م ص ١٤

[٣] الديوان ص ٥٩

تبدَّلُوا السجن بعد القصر منزلة :. وأحدقوا بلُصوصٍ عوَض أجناد

من ليكم يابني ماء السماء إذا :. ماء السماء أبي سُقيا حشا الصادي

وأين ألقاكم في الروع من فئة :.مدربين على الهيجا أنحاء

وأين معتمد نُعْمَى يُقسِّمُها :. مرعى وماء لزوَّار وروَّادِ

وأين يوضع ليهدى الرشيد ضُحى :. أجلو به في ظلام الغي إرشادي

...مكارم ومعالٍ كنت بينهما :. كأنني بين روضات وأطواد

فالتاريخ سواء أكان علمًا أم لم يكن فهو فن من الفنون ، على الأقل في جانب مهم منه ، لأن "الحادثة التاريخية تحتاج إلى براعة الكاتب وفنه وإبداعه حتى يكتبها كتابة جيدة تليق بها؛ فالحدث التاريخي والحادثة التاريخية ، لاتعدو أن تكون مجرد حدث فقط لاغير ، مالم يتناوله قلم المؤرخ أو الأديب ، فيشرح ويفسر بأسلوب جذاب ، وساحر أسباب الحدث وملابساته المعقدة والظروف المختلفة التي أدت إليه "[١]" ولقد تمّ صناعة تقاليد رثائية متنوعة في الاتجاه إلى التاريخ الماضي للتعزي به والركون إليه ، والسكون حياله ، لتهدئة النفس من روع الكارثة والمصاب الجلل" [٢] وبذلك يكون الشاعر قد أسهم في التخفيف عن نفسه من وطأة الحزن بإنتاجه للنص فضلاً عن مواساة السجين الذي يجد" شيئًا من التأسي الذي يبعث فيه روح الأمل والتفاؤل إذا علم أن هناك من يأسى لحاله ويشاركه همه وأحزانه "[٣] وتكون هذه البكائية لأجل الاعتبار بمن مضى وهي حالة ليست خاصة بدولة بني عباد وحدهم ، فلقد سبقتها ممالك زالت وصارت تاريخًا وأحداثًا في ذاكرة التاريخ .

٢-ويتحول البكاء على المعتمد في شخصه إلى بكاء على ماض المعتمد ..البكاء الأول سمح للعاطفة الذاتية بأن تجيش وإن تلبّست لَبوسًا تاريخيًا أحيانًا ،بينما البكاء الثاني: فسح المجال للعبرة والحكمة بأن تنطلقا يمكن القول إن قصيدتيْ ابن اللبانة (الدالية والتائية) [٤] "تتكاملان في الدلالة على الرثاء .[٥]
والماضي هو مسار الموضوع الأول بينما الحاضر يصير موضوع المسار الثاني . لقد شكل ذلك الخلع نهاية مرحلة أولى من تاريخ الأندلس ، القصائد المنظومة في رثاء بني العباد لاتوازيها فنية وحرارة إلا القصائد المنظومة في رثاء الأندلس في سقوطها النهائي التاريخ كان بالمرصاد : سقوط الإمارات بات إيذانا بسقوط الأمة الأندلسية ككُل .

٣-وحين يتمُّ الحديث عن الدَّهر ، باعتباره الحيْف المتأصِّل في طبعه يُراد منه الحديث عن قوة الدهر اللامحدودة التي ليس بإمكان أحد أن يقف في وجهها ، فإن أصاب دولة المعتمد في مقتل ، فليست

---

[١] حسن عثمان ، منهج البحث التاريخي ، دار المعارف ، مصر ، ط١، د/ ت ص ٧١

[٢] انظر : فن رثاء المدن في الشعر المغربي القديم من الفتح العربي الإسلامي إلى العهد العثماني ص ٢٣

[٣] انظر :شعر السجون في الأندلس ١٧٧

[٤] قالها في الأندلس إثر سقوط المدينة والثانية قالها في أغمات في المغرب عندما زاره هناك.

[٥] السابق ص ١٠٩

الوحيدة في مسار ضحاياه ، هاهنا ينهض معنى آخر من معاني رثاء الدول ، سقوط دولة بني عباد ليس لخلل في أمر من أمور تدبيرها ، بل لمشيئة الدهر وحكمته على الأصحّ . فالجميع يسير على طريق الفناء ، هذه هي القاعدة المشتركة بالنسبة للدول والأفراد على حد سواء ، والقاعدة يترجمها ، شعريًا ، ابن اللبانة [١]

لكل شيء من الأشياء ميقاتُ :. وللمنى من منائيهن غاياتُ

أو في قوله : [٢]

لما دنا الوقت لم تخلف له عدة :. وكل شيء لميقات وميعاد

أو في قوله [٣]:

هي المقادير لاتبقي على أحد :. وكل ذي نفس فيها لآماد

بعد التسليم بالمبدأ/ القاعدة ، يهوّن أمر تعديد الأمثلة من التاريخ وفي هذا الإطار ينهض معنى آخر من معاني رثاء الدول ، ففي شعر الرّثاء من هذا النوع ، لاتكاد تخلو قصيدة من إشارة إلى ما أصاب الدول السالفة من مصائب وكوارث [٤] "في دالية ابن اللبانة أمثلة لذلك وإن ظل سقوط بني عباد يأخذ بفكره وخياله بالمقارنة مع أي شيء آخر .[٥] يقول الشاعر [٦]

وأُسوةٌ لهم في غيرهم حسنت :. فما شماته أعداء وحساد

إن يُخلعوا ، فبنوا العباس قد خُلعوا :. وقد خَلت قبل حمص أرض بغداد

نقول فيهم وهم أعلى برامكه :. فالحال كالحال ، إفساد كإفساد .

٤-في سياقة عن الحديث عن الأمجاد المشرقة للدول قبل الزوال نجده يتحدث عن حالة النور التي كان ينعم بها الناس في ظل قيام الدوله ولكن عندما سقطت تحول النور إلى ظلام فالماض حالة النور والهداية ، والحاضر :حالة الظلام والضياع وفي ذلك يقول [٧]:

-نور ونور فهذا بعد نعمته :. ذوى وذاك خبا من بعد إيقاد

---

[١] الديوان ص ٣٦

[٢] الديوان ص ٥٦

[٣] نفسه

[٤] يمكن الاستثناء من ذلك تائية ابن اللبانة :لكل شيء ...ميقات

[٥] د: عبد الدين حمروش : المعتمد بن عباد في سنواته الأخيرة بالأسر : كتاب الدوحة : العدد ٩٠ إبريل ٢٠١٥، ص ١١٢

[٦] الديوان ص ٥٩

[٧] الديوان ٥٧

يأيها القمر المنير أهكذا :. يمحى ضياء النير الوقاد

...صباحهم كنا به نحمد السرى :. فلما عدمناهم سرينا على عمى

-وبما أن الظلام مجرد صورة من صور القيامة ورد لفظ القيامة مرتين عند ابن اللبانة

-وهكذا ارتبط رحيل بني عباد بحلول القيامة ، الحياة بعدهم لاقيمة لها

وابن اللبانة يرد القيامة في سياق التساؤل عن إمكانية البعْث

كما في قوله :[١]

-ترُى نرى بعد أنْ قامت قيامتهم :. من يوم بعث لهم فينا وميلاد

والحقيقة أنه بالرغم من قيام القيامة ، لم يكن ذلك البصيص من الأمل في عودة حكم بني عباد لِيُفتقد بالمرة بل ظل يراود ابن اللبانة إلى حين[٢]

مؤيدَ لخْمٍ هل تُؤمِّلُ رجعةً :. فكم أملٍ أضحى إلى النُّجح سُلّما

ولقد شهدت هذه الفترة نكبات جسام من انقلابات حاصلة كان للمعتبر بالتاريخ فرصة تجريد حِكم مضيئة بشأن تقلب الحال ومن ثم غدر الزمان ولقد جسد شاعرنا هذه الانقلابات وهذه الأحداث التاريخية الجسيمة للمعتبر من التاريخ أنفاسُ حارة وقلوب ملتهبة على تبدل الأحوال .

٥-ولقد جسد شاعرنا هذه الانقلابات وأن الدهر كان له دورٌ بارز حيث فرق بين الأصحاب ، لذلك يعلن الشاعر وفائه الدائم لصديقه بعدد من الزيارات له في منفاه بأغمات سنة (٤٨٦هـ) بالمغرب حكى ابن خاقان في (قلائد العقيان) عن ابن اللبانة وهو يرثي حال المعتمد "ندبه بكل مقال يُلهب الأكباد (...) سلك فيها للاحتفاء طريقًا لاحبًا ، وغدا بها لذيول الوفاء ساحبًا.لكن الدهر أبى إلا أن يفجعهما بتقويض دعائم هذه الصداقة دون سابق إنذار حيث أمسى الصديق الأمير مخلوعًا وغدا مهيض الجناح ، فكتب الشاعر قصائد تفيض لوعة واشتياق وندبًا للأسير. وكأنه يندب نفسه ويبكي حظه العاثر يقول فيها[٣]"

- أفكر في عصر مضى لك مشرق :. فيرجع ضوء الصبح عندي مظلما
- وأعجب من أفق المجرة إذ رأى :. كسوفك شمسًا كيف أطلع أنجما
- لئن عظمت فيك الرزية إننا :. وجدناك منها في البرية أعظما

---

[١] الديوان ٦٠

[٢] الديوان ص ١٢٥

[٣] الديوان ١٢٢

- قناة سعت للطعن حتى تقصدت :. وسيفبً أطال الضَرب حتى تثلّما
- وطود غريب في الشواهق أمره:. بني كله من فوقها وتهدما
- منابته زادت على النبع بالجنى :. فإذا عريت مع النبع أسهما

-بكي آل عباد ولا كمحمد :. وأولاده صوبُ الغَمامة إذ هما

حبيبٌ إلى قلبي حبيبُ لقوله (عسى وطن يدنو بهم ولعلما)

فالتحسر بان على العصر الذي مضى بإشراقاته وتجلياته كان فيها شمسًا مشرقة ولكن تحول هذا العصر إلى عصر مظلم يحدوه أفول النجم وكسوف الشمس ،وتشارك الشاعر مظاهر الطبيعة بالتحسر على (آل عباد)، وأنه حبيب إلى قلبه والمصيبة عظيمة إذا كانت في رجل في حجم (المعتمد) .ومفردات الطبيعة (الصبح ، المجرة ، النبع ، الطود ،)وتختلط هذه المشاعر الطبيعة مع مشاعره في التحسر على هذا العصر المشرق بالضياء أصابه الكسوف والظلام جاءت المفردات (بكى ، عظمت ، الرزية ، أمره ، تهدم ، آل عباد، حبيب ، قلبي) ومن صور التحسر على نفسه يذكر أيام العز والغنى التي عاشها في كنفهم وأنه صار بعدهم كالأعمى يسير بلاهدى يقول في ذلك [١]

-صباحُهم كنّا به نَحْمَدُ السُّرى :. فلمّا عدمناهم سَرينا على عمى

-وكنا رعينا العِزَّ حول حِماهُم :. فقد أجدب المرعى وقد أقفرَ الحمى

-وقد ألبست أيدى الليالي قلوبهم :. مناسجَ سدى الغيثُ فيها وألحما

-مصاب هوى بالنيرات من العلا :. ولم يبق في أرض المكارم معلما

-ندبتك حتى لم يُخل لي الأسى :. دموعًا بها أبكي عليك ولادما

-وإني على رسمي مُقيم فإن أمست :. سأترك للباكين رسمى موسَّمَا

صورة الماضي تظهر لنا الأبيات حالة العز من خلال استخدامه المفردات (نحمد السرى ، العز ، حماهم ، يُجيب بها الهام الصدى ، أجاب القيان الطائر المترنما ، قامت ، المكرمات ،) فصورة الحاضر تظهر في مفردات الضياع والقفر بعدهم (عدمناهم ، سرينا على عمى ، أجدب المرعى ، أقفر الحمى ، قصور خلت ، الدُّمى ، لم يكن فيها أنيس ، ولا أخضر روض في رباها) فهو يتوجع وتشاركه الأماكن التي شهد فيها أيام العز والحماية المعنوية والمادية فالقصور خالية لم يعد فيها سوى الاشباح تعلو ، والروض لم يعد مخضرًا فقد أجدب المرعي ، وأقفر الحي بعدهم .

[١] الديوان ١٢٤

-فلقد كان ابن اللبّانة متعصبًا للعرب لأنه عربيُّ الأصل لخميٌّ [١] الانتماء والنسب ؛ لذلك عُرف بشدة تعصبه للعرب وكثرة تحمسه للخميين منهم ، وليس أدلَّ على كثرة تحمسه للخميين من مدائحه لبني عباد ، وافتخاره بهم ، وماذاك إلا لأنَّهم ينتظمون وإياه في نسب واحد ؛ لذلك أعمل ذهنه في استنباط المعاني الدقيقة والصور البديعة التي أشاد من خلالها بعراقة أصلهم ، وعلو منزلتهم ، وسعة ملكهم ، وكرم طباعهم ، فكان ذلك أدعى إلى إكرامهم له وتقريبهم إياه ، يدل على هذا قوله : [٢]

- من بني المنذرين وهو انتساب :. زاد في فخره بنو عباد
- فتية لم تلد سواها المعالي :. والمعالي قليلة الأولاد
- ثم يرجع بهذا النسب إلى ملوك الحيرة من المناذرة [٣]
- من حَلْيةِ السيق لابرقٌ يخاطِّفها :. إلى مداها ولاريحٌ يجاريها
- تردُّهم نسبةٌ نحوَ السماء فهم :. من مائها وعلاهم من دراريها
- ويشيد بانتمائهم إلى لخم العربية حيث يجتمع الشاعر"ابن اللبانة" معهم في عصبة ورحم [٤]
- من سر لَخمٍ ، ولخم حيث ما شهدت :. تقدمت وبنو العليا لها تَبع
- قوم يُوالفُ سيماهم طهارتهم :. كأنهم بطباع المزن قد طبعوا
- يا وارث المجد عن شمٌ غضارفةٍ :. بهم أنوف الخطوب الشم تجتدعُ
- إن كان مجدك شعرًا في نفاسته :. فإنما أنت بيتٌ فيه مُخترع
- ويبدو أن شاعرنا رأى فيهم صورة مشرقة لنفسه وأصله ، فأقبل عليهم وتعصب لهم واعتز بهم وأخلص لهم حتى بعد زوال ملكهم دون أن يخشى مغبة ذلك الوفاء على نفسه [٥] وهو بهذا الافتخار العريق يحط من طرف خفي من الغاصبين للحكم (المرابطين) المنتمين إلى حضارة الصحراء في مقابل حضارة الأندلس حيث التحضر والجمال والتسامح والتعدد الثقافي .

---

[١] فالمصدر المشرقي تبعًا لنسبة اللخمي (حيث حدد جغرافيا في العريش بين الشام ومصر) ، ويقوم الأصل العربي نقيضًا للبربر باعتباره ما يجسد من صراع على السلطة بين آل عباد / وبني حمود / البربر من أصل إدريسي .

[٢] الديوان ص ٤٩

[٣] الديوان ص ١٤٤

[٤] الديوان ص ٩٢

[٥] انظر / ص ١٩-٢٠ رسالة شعر ابن اللبانة الداني دراسة وصفية رسالة ماجستير ، السعودية /جامعة ام القرى للطالب عواطف محمد صالح ١٩٩٧م

- ولقد جمعت كتب التاريخ مصادر فخر شخصية المعتمد وعوامل الفخر عديدة منها :١-المصدر المُلوكي باعتبار مآل نسبه إلى النعمان بن المنذر اللخمي آخر ملوك "الحيرة"وقد وُظف شرف النسب شعرًا من قبل الشعراء ومنهم ابن اللبانة (أبو بكر عيسى الداني) الذي ينسب أيضًا إلى اللخميين فكان سببًا لتعصب الشاعر تجاه صديقه العربي اللخمي فجمع بينهم عروبة النسب من جهة والصداقة من جهة أخرى وطيب العيش في كنفه من ناحية ثالثة فلا ملامة على شدة وفائه له وحسرته على فقده .

المبحث الثالث : بنية الندب /وهدم النموذج

لاتتوقف البكائيات الوطنية أن تكرس الهزيمة الجماعية ، فعندما تتحول المدينة من المجد إلى الذل تبكي الجماعة رموز قوتها ومنعتها وهي تشيّع ملوكها إلى المقابر حينًا ، وإلى غياهب السجون حينًا آخر " لترتسم صور الإنكسار ، وتتلون بسواد الجنازات ، ويصطبغ المكان بدكنة الحزن والأسى ، وتتسربل الجماعة بأشلاء اليأس والقنوط ، ويرخى الليل مأساته الأبدية وتتحول ثلاثية الهزيمة إلى رباعية يضيف تحول المثال ضلعًا إلى أضلاعها الثلاثة لتكون الهزيمة أعمق ، والإحباط أقسى القصائد البكائية [١]وهي تعجز عن تحديد الخطب الجلل وإن تحددت المعاني الكبرى ليبقى النص مفتوحًا يستخلص ألحان الانكسار ويرجع أصداء الأحاسيس المنهزمة" .[٢]يصف المقري مشهد انكسار مملكة العبادين وتحول مثالها واستشعار الجماعة هزيمتها يقول :" ثم جمع هو وأهله وحملتهم الجواري المنشآت وضمتهم جوانحها كأنهم أموات بعدما ضاق القصر وراق منهم العصر ، والناس قد حشروا بضفتي الوادي ، وبكوا يدموع كالغوادي ، فساروا والنواح باللوعة لايعدوهم "[٣] .

ويصف شاعرنا يوم سقوط المعتمد بأنه يومًا دراميًا ...وهو نزول الأسد من عرينه نزولاً مهينًا مخزيًا حيث دخل المرابطين القصر من كل جانب وأحاطوا به وبأهل بيته ولم ينفع معهم قتال...فأجبر (المعتمد) أن ينزل بقواته كلها في الميدان لقتال (المرابطين) ، ولكن المرابطين كانو أكثر عددًا فهزموه وارتد (المعتمد) إلى إشبيليه وامتنع بها إلى أن كان يوم الثلاثاء منتصف رجب سنة (٤٨٤هـــــ) فعظّم الخطب في الأمر الواقع ، واتسع الخرق فيه على الراقع ... ، فشنت الغارة في البلد ، ولم يبق فيه على سبد لأحد ولا لبد ، وخرج الناس من منازلهم يسترون عوراتهم بأناملهم ، وكشفت وجوه المخدرات العذارى ، ورأيت الناس سُكارى وما هم بسكارى "[٤] في هذه الحرب المستعرة خرج(ابُن عباد) فأغمد سيفه ، ونزل من القصر إلى الأسر ، وامتدت إليه يد عدوه العاتي ، فوضع الثفاف في يده ، وحمل هو وآله في سفائن أعدت لهم ، وسارت بهم في الوادى الكبير في طريقهم إلى (أغمات) ،

---

[١] الدالية مثلاً:

[٢] رسالة ماجستير :الهزيمة في الشعر الأندلسي في القرن الخامس الهجري :الطالب : بشير اعبيد : الجزائر : بسكرة : كلية الأداب واللغات ٢٠٠٩

[٣] المقري :نفح الطيب

[٤] من وصف الداني أيضًا وانظر : نفح الطيب ١١٠٤مصر نفح الطيب للسان الدين بن الخطيب (ط مصر سنة ١٢٧٩)

وقد احتشد الناس على ضفتي النهر يودعون راعيهم بالبكاء ، ويذرفون على أيامه الدمع سخين الدموع ، وكان الداني الشاعر ممن شهد تلك الساعات الفاصلة في تاريخ إشبيلية فأثارته تللك الخطوب التوالي ، وحركن عنده لواعج الحزن والأسى واللوعة ، فرثى ملك سيده ومولاه [١]:

فالصورة التي قدمها ابن اللبانة أن الهزيمة الجماعية رباعية الأطراف :

١-هزيمة المكان عندما ضاق عنهم القصر

٢-هزيمة الزمان انتهاء عصر بني عباد وبداية عصر جديد (المرابطين)

٣- هزيمة الجماعة أن الناس حشروا على الضفتين يودعون راعيهم .

٤- هزيمة المثال جمع هو وأهله ، وحملتهم السفن كأموات في ألحاد

والموت هنا معنويًا لأنه شكل للأدباء وأهل إشبيلية نموذجًا لا يتكرر في التاريخ.

-لذلك يصور الشاعر حالته بعد سقوط النموذج بأنها نكد وغصة ، وإنما تتعثر ثم تمضي وتستمر وكذلك حياة الإنسان فهي تمضي وتستمر بحلوها ومرها حتى يأتي قدرها المحتوم وفي ذلك يقول:[٢]

لقَّاكم الله خيرًا إنكم نفرُ :. لم تعرفوا غير فعل الخير من عاد

إن كان بعدكم في العيش من أربِ:. فإنَّ في غُصصٍ عيشي وإنْكَادِ

ففي عهده نال الشعراء مكانة مرموقة على المستويين (الأدبي والسياسي) حيث " كان لايستوزر وزيرًا إلا أن يكون أديبًا شاعرًا حسن الأدوات"[٣]حتى اجتمع له من الشعراء وأهل الأدب مالم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس" [٤]

ومما قاله الفتح بن خاقان في كتابه قلائد العقيان[٥]" كانت حضرته مطمحًا للهمم ، ومسرحًا لآمال الأمم ...لم تخل من وفد ...فاجتمع تحت لوائه من جماهير الكماة ، ومشاهر الحماة ، أعداد يغصّ بهم الفضا ، وأنجاد يُزهى بهم النفوذ والمضا ، وطلع في سمائه كلُّ نجم منتقد، فأصبحت حضرته ميدانًا لرهان الأذهان ، وغاية لرمي هدف البيان ، ...فلم يرتسم في زمانه إلا بطلٌ نَجد ، ولم يتسق في نظامه إلا ذكاءٌ

---

[١] تبكي السماء بدمع بين رائحٍ غادى :. على البهاليل من أبناء عبادِ

[٢] الديوان ٦٢

[٣] المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ١٦٢

[٤] المصدر نفسه ص ١٥٨

[٥] قلائد العقيان للفتح بن خاقان ، ط ، بولاق سنة ١٢٨٣م ص ٤

نقلاً عن كتاب : ديوان المعتمد بن عباد "ملك إشبيلية : جمعه وحققه د: حامد عبد المجيد ، د: أحمد أحمد بدوي مطبوعات دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٩٧م ص ٣٣ المقدمة

ومجد ، فأصبح عصره أجمل عصر ، وغدا مصره أكمل مصر ، تُسفح فيه ديم الكرم ، وبفصح فيه لسانا سيف وقلم ، ويفضح الرضا في وصفه أيام ذي سَلم "

وخلاصة أقوال المؤرخين أن دولة بني عباد كانت قوية الأركان والدعائم كما وصلت دولة الأدب في عهده في أوج ازدهارها حيث ساحة الشعراء والكل يتبارى في القريض وما بلكم إذا كان صاحب اللقاء ملكًا شاعرًا" فهو نسيج وحده في الجود ، يستحسن الكلمة ،وبارع في النظم والنثر ، رقيق الحاشية ، كثير البديع ، حسن الإشارة جم التوليد ، لم ينشده من الوزراء والشعراء أشعر منه على كثرة ما اجتلب إليه ، من أعلاق الثناء ، ونثر عليه من درّ الحمد ، ووضع في يديه من حرّ القريض" [١]

-ويعبر ابن اللبانة عن ازدهار دولة الأدب وأنه كان محط أنظار القاصدين الطالبين للعطاء والباحثين عن المجد . [٢]

وكعبة كانت الآمال تعمرها :. فاليوم لاعاكف فيها ولاباد

تلك الرماح رماح الخط ثقفها :. خطب الزمان ثقافًا غير مُعتاد

-وبكائه على حاله من بعدهم كأنه ينعي حظ كل الشعراء الذين عاصرهم فلم يعد هناك زوار ولامرعى ولازاد .اقفرت الساحات وصارت خاوية وتشتت الشعراء :[٣]

وأين معتمدٌ نعمى يقسمها :. مرعى وماء لزوار ورواد

وأين يوضح لي هدى الرشيد ضحى :. أجلو به في ظلام الغي إرشادي

وأين لي كنف المعتد منزلة :. على احتفال من النعمى وإعداد

مكارم ومعال كنت بينهما :. كأني بين روضات وأطواد

لقاكم الله خيرًا أنكم نفر لم تعرفوا غير فعل الخير من عاد

إن كان بعدكم في العيش من أرب :. فإن في غصص عيشي وأنكاد.

ومن صوره المؤثرة التي تعبر عن تحسرة: [٤]

أنت للفضل كعبةٌ ولو أني :. كنت أستطيع لاستطعت الطوافا.

---

[١] انظر ديوان المعتمد بن عباد "ملك إشبيلية : جمعه د: حامد عبد المجيد ، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٩٧م ص ٣٥ المقدمة

[٢] الديوان ٥٦

[٣] الديوان ص ٦٢

[٤] الديوان ص ٩٤

ليس أبعد مدى من أن يصير الفضل كعبة ، يكون الممدوح في قلبها موضوعًا للطواف .من خلال هذا المعنى ، الذي تمَّ التوسل إليه عبر التصوير البصري ، يكتسب المعتمد بعدا دينيًا ، باستحقاقه الطواف كأنه كعبة ليست قبلة للدين وإنما للعطاء والكرم .

فلقد حس الشعراء بالأمن والأمان من بعد ضياع وتخبط في دروب الملوك ليعطى حينًا ويصد حينًا آخر ، لذاك كان هذا الملك أكثر الملوك قصدًا؛ لأنه أكثرهم بذلاً وعطاءً ، وإشباعًا لحاجات الشعراء المادية والمعنوية وأقدرهم على بث الطمأنينة والأمن في نفوسهم ، ولعل هذا يفسر إقبال كثير من الشعراء في الأندلس على بلاط آل عباد وبخاصة ملكيهم الأديب الشاعر المعتمد بن عباد (ت ٤٨٨هـــ) ولم يك في ملوك الأندلس قبله أشعر منه ولا أوسع مادة ، وفي أيامه نفقت سوق الأدباء فتسابقوا إليه ، وقد دام ملكه ثلاثًا وعشرين سنة " [١]"وكانت حضرته في أثنائها قبلة الشعراء والأدباء ، وحلبة سباق للتنافس بينهم في إنشاده أجود ما تجود به قرائحهم من مدائح اعترافًا بفضله وبغية إحراز مكانة أثيرة لديه ، ونيل عطفه ورفده وحمايته "[٢]ولهذا اجتمع أعلام الشعر والأدب في بلاطه ، لينالوا نصيبًا من العطاء الكبير ، وعبّروا عن تقديرهم ووفائهم لما كان كان يوليهم من حسن الرعاية والاهتمام ، وكان من أبرز هؤلاء الشعراء الذين عبّروا عن فضل المعتمد الشاعر ابن اللبانة الذي أخلص لبني عباد عامة والمعتمد خاصة؛ لأنه كان في كنفه منعمًا يشعر بالحماية المادية والمعنوية ولكن تبدلت هذه السعادة إلى شقاء بعد رحيله .وتقويض دولة بني عباد لأنه لم يكن ضياع الدولة له أثرًا سياسيًا وفقط بل كان له أكبر الأثر على دولة الأدب.

- -بالرغم من أفول نجم المعتمد كرمز وطني وظهور الحكم المرابطي في الأندلس وتغير الرؤى والأحوال في هذه البلاد خاصة أحوال المفكرين ومنهم الشعراء ، إلا أن الشعر ظل متواطلاً ، بل متصلاً مع الحياة فإذا هو مرآة عاكسة تعكس ماحولها من أحداث. فكان لسقوط إشبلية في يد المرابطين أثره البارز في تحريك مشاعر الشعراء وأقلامهم فبكوا العزيز الزائل والمجد الراحل لاسيما وهم يرون نجم المعتمد بن عباد في أفول فكانت مأساة سقوطه ونفيه إلى المغرب "وهنا يرادف المغرب الموت بما يجعل من أرضه قبرًا لكل عظيم فذلك مما يُكسب هذا المغرب قوته الرمزية في دلالته على الموت ..وأي موت ؟ إنه موت العظماء نفيًا وسجنًا " [٣]حتى أصبحت قصة "العزيز الذي ذل "ملهبة لعواطف المخلصين فجاء شعرهم من أنبل ما قيل في الرثاء وعبارة عن أنات وحسرات وزفرات.

- لأن رثاء المدن الزائلة تعبر عن هموم إنسانية ومعاناة جماعية فهو يتجاوز المعاناة الفردية إلى التعبير عن هموم جماعية ومأساة أمة ومعاناتها "فإذا كان رثاء الأشخاص يحمل معاني التفجع

---

[١] راجع : ابن الأبار تحقيق د: حسين مؤنس ، الطبعة الأولى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٣م

[٢] د: أشرف محمود نجا ، قصيدة المديح في الأندلس " عصر الطوائف "دراسة فنية ، دار المعرفة الجامعية الاسكندرية ١٩٩٧م .ص ١٩

[٣] د/ عبد الدين حمروش "المعتمد بن عباد " في سنواته الأخيرة بالأسر : كتاب الدوحة العدد ٩٠ إبريل ٢٠١٥ دولة قطر .ص ٦٣

والألم لحالة الفقد الإنساني ، فإن رثاء المدن ، يعكس حالة فقد مزدوجة تجمع البعدين المادي والمعنوي مما يجعلها أعمق أثرًا وأشد وطأة في النفس البشرية لأنها تعبر عن حالة انكسار كاملة ، وفقدان الأمة لذاتها " [١]

المبحث الرابع : بنية الندب / ومحنة الأسر

- لما كان الرثاء شكلاً من أشكال المديح [٢]، فإن خصائصه الفنية تماثل خصائص المديح ،والذي يفرق بينهما هو المقام والسياق الخارجي أو يستخدم الشاعر ألفاظ تدل على البكاء والندب ، أو ألفاظ تدل على المديح .

- لقد كان المعتمد مثالاً في كل الفضائل كما جاء عند المؤرخين كـــ(كالمراكشي في المعجب) وغيره حيث كان فيه من الفضائل الذاتية مالايحصى : كالشجاعة والسخاء والحياء والنزاهة إلى ما يناسب هذه الأخلاق الشريفة ."وفي الجملة فلا أعلم خصلة تحمد في رجل إلا وقد وهبه الله منها أوفر قسم ، وضُرب له فيها بسهم .وإذا عدّت حسان الأندلس من لدن فتحها إلى هذا الوقت فالمعتمد هذا أحدها بل أكبرها "وكل تلك الأوصاف جعلته (مثالاُ) ورمزًا وطنيًا لجميع الشعراء وكذلك الأندلسيين "[٣]

- ١-إن الكرم خصلة أصيلة في الملك / الشاعر ، لاتكاد تفارقه في أوقات سعته وشدّته ، والواقع أن الأخير قدّم أكثر من دليل على جوده وعطائه ، حسب ما تناقلته كتب التاريخ والأدب ومع ذلك حسبنا بعض ماجاء من صور لدى شعرائه ، الذين خبروه في سعته بإشبيلية أو في محنته بأغمات ...ومنهم ابن اللبانة نفسه ، الذي يقول متعففًا من عطاء المعتمد ، وهو في غربته يعاني شظف العيش :[٤]

- كما يتحدث عن عطائه وهو في الأسر.[٥]

- أملبسيَ النُّعمى قديمًا ومثلها :. حديثًا وأحداث الزمان عِظامُ

- يبدو أن الكرم الذي ارتبط بالمعتمد ، هو سمة تشكلت شعريًا لتقرر وجْه الإطلاق ، وهو يعنى مجاوزة الحدّ في الكرم .

---

[١] د: عماد الضمور ، ظاهرة الرثاء في القصيدة الأردنية ، دار الكتب الثقافي ، الأردن ٢٠٠٥م ص ٨٩

[٢] انظر : غازي طليمات ، وعرفان الأشقر : الأدب الجاهلي ، قضاياه وأغراضه ، أعلامه ، فنونه ، دار الفكر دمشق ، ط، دج ، ص ٢٤٢-٢٥٦

[٣] انظر : المراكشي في المعجب

[٤] الديوان ص ٦٣

[٥] الديوان ص ١٣٠

- بل إن الاصرار على المبالغة في مجاوزة الحدّ ينتهي بابن اللبانة إلى أنْ ليس للمكارم بعد ممدوحه حياة [١]

- لم تمت إنما المكارم ماتت :. لا سقى الله بعدك الأرض قطرْا

فعندما زار ابن اللبانة (المعتمد)في محبسه يرسل له الأخير " عشرين مثقالاً مرابطية ، وثوبين غير مخيطين "وكتب معها أبياتًا منها [٢]:

- إليك النزر من كف الأسير :. وإن تقنع تكن عين الشكور

- تقبل ما يذوب له حياء :. وإن عذرته حالات الفقير

- ومما يهمنا في حقيقة الأمر ، هو ما أجاب به أبو بكر الداني ، مُركزًا على قيمة السخاء في ممدوحه وكرمه .[٣]

- حاشَ لله أن أُجيح كريمًا :. يتشكى فقرا وقد سدَّ فقرا

- وكفاني كلامك الرطب نيلاً :. كيف ألغي دُرَ وأطلب تبرا

- لم تمت إنما المكارم ماتت :. لا ، سقى الله بعدك الأرض قطرا

- ويقول الشاعر ذاته .[٤]

- ومن رمته من الأيام حادثة:. فليس غير ابن عباد لها وزر

- ملك غدا الرزق مبعوثًا على يده :. وظل يجري على أحكامه القدر .

- كلني إلى أحد الأبناء يُنعشني :. مالم يكن ليَ بحرٌ فليكن نهرُ

- فلقد جسد شاعرنا تلك اللحظة الفارقة في حياة ابن عباد وهذه القصائد التي قيلت في المعتمد سواء قصائد الشاعر المغربية أم قصائده في الأندلس تصور لنا حياة الأندلس أبان حكم ابن عباد وحياته في سجن أغمات ارتسمت لنا المفارقة الصارخة لدى من المؤرخين والمثقفين بين :دولة التقشف حيث لاتُسمع إلا أصوات الفقهاء ، وصليل السيوف (في المغرب) وبين دولة الحضارة

---

[١] الديوان ص ٦٤

[٢] نفح الطيب : المجلد الرابع ص ٩٦-٩٧

[٣] الديوان ص ٦٣

[٤] الديوان ص ٦٨

، حيث تسود مساجلات العلماء ونشيد الشعراء وغناء أهل الموسيقى [١] .وفي إطار التراجيديا التي عرفتها الفترة المعنية ، آل الأمر إلى انتصار دولة الفقهاء المرابطية ، بدعم من أهل الدين في الشرق والمغرب .

٢-لقد أخفى الشاعر مشاعره ليظهر مشاركته الجماعية ليبين (لنا) أن معاناة المعتمد داخل السجن هي معناة جماعية ،وهو يشعر ويحس بالذي يحس به المعتمد وهو في زنزانته فالمعاناة ليست فردية وأن الأذى فيه شامل وبالغ في تصوير الآم المساجين بأن حول المكان الى قطعة من الجحيم وهذا يتناقض مع مفردة (سكن) التي توحي بالسكينة والهدوء وهو يستخدم في القصائد التي قالها وهو في زيارته (بأغمات)والمعتمد في سجنه بين حالين بين الماضي التليد من العز والمجد والشرف والسؤدد وبين الحاضر الذي يحمل الشقاوة والعذاب والحسرة على الملك .

- ماضي تليد وحاضر بئيس يعيشه الشاعر ومن عناصر المكان التي كانت لها الحضور الفاعل في النص الشعري (أغمات-ثقاف- السجن- الاشارة لابن تاشفين)

- والشاعر يحاول إلى تشخيص أجزاء المكان ويضفي عليها المشاعر الإنسانية في هذه الجدران ، فشاعرنا يعبر عن مشاعر وأحزان المعتمد وهو في السجن لايقوى على تحمل هذه المعاناة ويذكر الشاعر أعداء ابن عباد ومنهم (المرابطين) البداوة الذين سلبوا ملكه .

- والملاحظ أن استحضار شجاعة المعتمد كان يوازيه استحضار لحالة الضعف التي بات عليها بسبب من هوان السجن الذي تعرض له :[٢]

- وأنت يافارسَ الميدان الخيل التي جعلت :. تختال في عدد منهم وأعداد

- ألق السلاح ، وخَلِّ المشرفي فقد :. أصبحت في لهواتِ الضَّيغمِ العادي

- ٣-وإن كانت الشجاعة ثابتة في المعتمد شعريًا ، فإنها لاتصل مدى ما وصلته صفة الجود ، والسبب أن هذه الأخيرة ظلّت تلازمه في فترتيْ مُلكه وأسْره ، في حين أن الأولى كفَت بترحيله إلى أغمات أسيرًا ، ومن ثم باتت الشجاعة منقطعًا حبلُها عنه لاسبيل إليها إلا التمنى على لسان ابن اللبانة .

- ٤- إضافة إلى الكرم والشجاعة ، تركز قصائد السجن المغربية في جزء منها على معنى الإشراق ، وتهلل الوجه ، والإشراق يرادف الهدى كما جاء لدى ابن اللبانة [٣]

- أكرر لحظي في محياك إنه :. لنور الهدى فيه قَتام

---

[١] العبارات للمستشرق دوزي ، نقلاً عن كتاب "الشعر العربي في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس

[٢] الديوان :ص ٥٧

[٣] الديوان ص ١٣٠

ومع ذلك ، فإن صفة الإشراق تظل ملازمة للمعتمد ، حتى وهو يعاني ظلمة السجن ، ومثل نور الهدى ، يبدو أن النور يأخذ طابعًا معنويًا ... وهذا سِرُّ استمرار توهُّجه حتى بعد وفاة المعتمد ، مثلما جاء عند ابن البانة .

- تبدو عودة النور مطلوبة أكثر ، بالنظر إلى ما حلَ من ظلام مُطبق ، ولأن المعتمد مصدر انبثاقه ، فإن الإطاحة به باتت إطاحة بدولة النور ، وإقامة دولة الظلام على أنقاضها ، والأمر يأخذ بعدًا أقوى بالنسبة للشعراء أولئك الذين ارتبطت حياتهم بالمعتمد بفعل إجزال الأخير لهم العطايا والمنائح ، وبمعنى آخر ، فإن عودة سلطة المعتمد توزيها عودة أخرى ، يمكن أن نسيمها سلطة الشعر ، لا مجال للرجوع مرة أخرى إلى ما حكاه الشعراء عن محنتهم ومحنة الشعر في فترة المرابطين ، ومن هنا فقد أصبحت ظلمة المعتمد ظلمة للشعراء ، ذاك في ظلمة السجن ، وأولئك في ظلمة البؤس. فصفة الاشراق يمكن القول بأن أهميتها لا تتحدد في صفة محدّدة من قبيل الكرم أو الشجاعة على العكس من ذلك ، تتحدد أهميتها في إمكانية الجمع بين جميع الصفات الإيجابية التي يمكن أن يحوزها شخص الممدوح ، فالإشراق مُجسَّدًا في النور أو النجم أو الصبح يصير دليلاً إلى الهدى في الدين والدنيا على حدٍ سواء

- ٥-ومن المواقف الاجتماعية المؤلمة والتي هزت كيان شاعرنا ولكنه بكاءً حارًا **رؤيته** ابن المعتمد (فخر الدولة) يُسلم نفسه للعمل في حرفة من الحرف العامة وكأنه واحد من عامة الناس بعد أن ضاعت منه حرفة الإمارة والوزارة حيث أصبح صبيًا معاونًا في صباغة الحُلي بعد أن كانت العلياء تصاغ له حليًا"

- ، لذلك أنفجر ابن اللبانة باكيًا من المشهد وايحاءاته ، مسجلاً احتجاجه واستنكاره في قصيدة حزينة باكية جاء فيها قوله :[١]

- أذْكى القلوب أسىً أبكي العيون دمًا :. خَطبٌ وجدناك فيه يُشبه العدما

- شكاتُنا فيك يافخر العُلى عَظمت :. والرزْءُ يُعظُم فيمنْ قدْرُهُ عَظُما

- طوقت من نائبات الدهر مُخنقة :. ضاقت عليك وكم طوَّقتنا نِعَما

- وعاد كونك في دُكان قارعة :. من بعد ما كنتَ في قصرٍ حكى إرمَا

- صرَّفْتَ في آلة الصّواغ أنْمُلةً :. لمْ تَدر إلا الندى والسيف والقلما

- ياصائغًا كانت العليا تصاغ له :. حَليًا وكان الحلي منتظما

- لذلك بالغ في تصوير ذهوله من هذا المشهد –مشهد الأمير في الفحم –فجعله شبيهًا بالذهور من نفخ الصور ، وحيث تمنى أن لو أصابه العمى قبل رؤية الأمير وهو ينفخ فحم الصائغ ، ولكنه

[١] الديوان ص ١٢٠

على الرغم من هذه المبالغات وجدناه يوجه الخطاب إلى الشاب طالبًا منه التذرع بالصبر ، لأن عاقبته محمودة وإن طال الزمن [١]

- فالشاعر يعرض لنا صورة مكانين : مكان المغادر منه ما فيه من ترف ورفاهية العيش والمكان المغادر إليه وهو السجن وبين الكافور الذي فرشه في القصر ، والطين الذي تطؤه بناته في السجن "ذلك أن الفنان لايلجأ إلى عناصر الموضوع جميعها يدرجها على نسق واحد في العمل الفني ، وإنما يتخير منها ماكان أكثر تعبيرًا عن دواخل التجربة الجمالية التي يعانيها .

- إن حضور المكان في النص الشعري لم يكن مقتصرًا على أبعاده المادية الحسية " وإنما يتغلغل عميقًا في الكائن الإنساني ، حافزًا مسارات وأخاديد غائرة في مستويات الذات المختلفة .

٧-الخاتمة ونتائج البحث

- وبعد هذا التطواف مع شعر ابن اللبانة في تصويره للمشاهد التاريخية المؤلمة في دولة بني عباد والمعتمد خاصة توصلنا إلى تلك النتائج:

- ١- تميزت هذه الأشعار بالصدق والحرارة وذلك لأن الشاعر يكتب من أعماق قلبه لهول المصيبة التي حلت ببني عباد ألاوهو زوال الدولة وسقوط المدن ونزول (المعتمد بن عباد) من عرشه وترحيلة في مشهد مأسوى حزين أذهل العقول وأبكي العيون وكانت القلوب تتفتت وهم يودعون راعي دولتهم وترحيلهم في سفن كأنهم أموات في ألحاد لايحملون سوى زاد بسيط .

٢-الشاعر لم يكتفي بتصوير المشهد وكفي بل ذهب إليه في محبسه (في أغمات) في المغرب ليزور صديقة زيارة بر ووفاء ليس بحثًا عن عطاء وأبكاه الشاعر بدموع ملؤها الحسرة على ماضٍ مشرق وعظيم استشعر الشاعر طعم السعادة ولذيذ الأنس وطيب العيش في كنفهم كل ذلك تحول بعد رحيلهم إلى سراب.

- ٣-ولقد أثرت تلك التجربة المؤلمة (سقوط الدولة وترحيل راعيها إلى أغمات) على اللغة وعلى الصورة الشعرية.فصارت معبرة عن الحدث التاريخي .

- ٤- شارك الشاعر معه الطبيعة في البكاء والنحيب وتحولت الأرض من أرض تخرج الخير والنماء إلى حالة من الجدب والقفر وتحولت الليالي المقمرة إلى ظلمة حالكة بعد رحيلهم .

٥-فنجد المفارقة على مستوى اللغة والتصوير الفني فجاءت المقابلة واضحة في كل صور الرثاء لذلك تميزت بالندب والبكاء .على ماض تليد وحاضر مؤلم .

٦-وجاءت المفارقة على المستوى الرؤية (حضارة الأندلس بما فيها من تعدد وتسامح) وحضارة المغرب بما فيها من بداوة وشظف من العيش .

---

[١] الديوان ص ١٢١

٧-العلاقة بين الشاعرين الشاعر الملك (ابن المعتمد وابن اللبانة) أثرت في التجربة الشعرية وأثمرت لنا قصائد تعبر لنا على الوضع المأسوى الذي حدث للدولة فأسهمت هذه العلاقة إلى حد كبير في شاعرية ابن اللبانة وشكلت رافدًا من روافد خطابه الشعري ، وعنصرًا أساسيًا من عناصر الإبداع الفني فيه ، ووسيلة من وسائل التعبير عن المعاني التي ظهرت جلية في ثنايا هذه الدراسة ، ولعل هذا يعود إلى تلك العلاقة الوثيقة التي جمعت بين ابن اللبانة الدّاني والمعتمد بن عباد.

٨-كثر الندب عند شاعرنا في موضوعاته عن الرثاء لأنه كان يبكي بني عباد الذين ماتوا موتًا معنويًا حيث سقطت عروشهم ، بخلاف التعزية المرتبطة بالموت الحقيقي

- ٩- أثرت التجربة الشعرية على المعاني والصفات حيث اتسمت بسمتين بارزتين هما : اتزان معاني الحزن ، وتكرار المعاني والصفات ويرجع هذا الاتزان إلى نظرته التي تدل على عمق التفكير وتسليم بالقضاء والقدر ،أما تكرار المعاني في مرثياته لأنه كان يتحسر على بني عباد وما حلّ بهم من ظلم واضطهاد ، وكان ينعي المعتمد إلى الكون كله وإلى كل من فيه.

- ١٠-أما الأسلوب تميز بالواقعية وعدم الجري خلف الخيال ويرجع هذا إلى أنه كان مشغولاً بربط شعره بالواقع الحي وبالأحداث المعاصرة التي استولت على مشاعره وخاصة نكبة آل عباد ، فأسلوب الشاعر في كل ما سبق يسير على نمط أسلوب الاتجاه الشعري المحافظ في الأندلس الذي عرف بغلبة المقطعات الشعرية .

المصادر والمراجع

١-ابن خاقان أبو نصر (ت ٥٢٩هـــ) قلائد العقيان ، ومحاسن الأعيان ، تح : حسين يوسف خربوش ، مكتبة المنار ، الزرقاء ، الأردن ، ط١ ، ١٩٨٩.

٢-ابن خلكان ، أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـــ) وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، تح : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٧، مج ٥

٣-ابن الأبار محمد بن عبدالله ، الحلة السيراء ، ط٢ تحقيق د: حسين مؤنس، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٣م

٤-ابن سعيد المغربي على بن سعيد (ت ٦٨٥هـــ) المغرب في حلى المغرب ت : شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ط١ ، ١٩٦٤، ج٢/

٥-إيميل ناصف:أروع ماقيل في الرثاء ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الثانية .(د، ت).

٦-إميلوز غرسيه غومس "الشعر الأندلسي ، بحث في تطوره وخصائصه ، ترجمة حسين مؤنس :مطبعة لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ، ط١/، ١٩٥٢-

٧-أحمد إبراهيم ملحم : شعرية المكان " قراءة في شعر مانع سعيد العتيبة ، ط١ عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع إربد ، الأردن ،

٨-د: أشرف محمود نجا ، قصيدة المديح في الأندلس " عصر الطوائف "دراسة فنية ، دار المعرفة الجامعية الاسكندرية ١٩٩٧م .

٩-اعتدال عثمان : المكان في الشعر العربي ،مجلة الأقلام ، من بحوث مهرجان المربد الشعري ، السادس ،

١٠-الأمير شكيب أرسلان ،الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، بيروت : مكتبة الحياة .

١١- حسن عثمان ، منهج البحث التاريخي ، دار المعارف ، مصر ، ط١، د/ ت

١٢- ديوان ابن اللبانة الداني " مجموع شعره " جمع وتحقيق د: محمد مجيد السعيد ، الجامعة العراقية الطبعة الثانية ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م) دار الراية للنشر عمان ط٢ ٢٠٠٨م

١٣-ديوان المعتمد بن عباد "ملك إشبيلية : جمعه وحققه د: حامد عبد المجيد ، د: أحمد أحمد بدوي مطبوعات دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٩٧م

١٤-رسالة دكتوراه : فن رثاء المدن في الشعر المغربي القديم من الفتح العربي الإسلامي إلى العهد العثماني : عبد القادر شريط ، الجزائر ، باتنة ، ٢٠١٤م

١٥-رسالة ماجستير :شعر ابن اللبانة الداني دراسة وصفية رسالة ماجستير ، السعودية /جامعة ام القرى للطالب عواطف محمد صالح ١٩٩٧م

١٦-رسالة ماجستير :الهزيمة في الشعر الأندلسي في القرن الخامس الهجري :الطالب : بشير اعبيد : الجزائر : بسكرة : كلية الأداب واللغات ٢٠٠٩

١٧- الشنتريني ، أبو الحسن على بن بسام (ت ٥٤٢هـ) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تح إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط١ ،١٩٩٧، ق٣، مج ١،

١٨-شوقي الجمل ، علم التاريخ ، نشأته وتطوره ووضعه بين العلوم الأخرى ، ط١ ، مصر ، مكتبة الأنجلو، ١٩٨٢،

١٩-فاطمة قدورة الشامي ، علم التاريخ ط١ ، بيروت ، دار النهضة العربية ٢٠٠١م

٢٠-د: عبد الدين حمروش : المعتمد بن عباد في سنواته الأخيرة بالأسر : كتاب الدوحة : العدد ٩٠ إبريل ٢٠١٥،

٢١-د: عماد الضمور ، ظاهرة الرثاء في القصيدة الأردنية ، دار الكتب الثقافي ، الأردن ٢٠٠٥م

٢٢-غازي طليمات ، وعرفان الأشقر : الأدب الجاهلي ، قضاياه وأغراضه ، أعلامه ، فنونه ، دار الفكر دمشق ، ط، دج ، ص ٢٤٢-٢٥٦

٢٣-المراكشي ، عبد الواحد بن على (ت ٦٤٧هـ) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تح : محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع ، القاهرة ط١ ، ١٩٩٤،

٢٤-د. منجد مصطفى بهجت الأدب الأندلسي " من الفتح حتى سقوط غرناطة (٩٢-٨٩٧هـ)

، الموصل ، دار الكتب للطباعة والنشر (١٩٨٨م)

٢٥- نفح الطيب للسان الدين بن الخطيب (ط مصر سنة ١٢٧٩)

المعجب للمراكشي (ط ليدن سنة ١٨٨١م

Painful historical scenes according To Ibn al-Labbanah (507) AH

By

Dr. Ibtisam Ragab Tabl

Assistant Professor Faculty of Sciences and Arts

At Tabargalm Aljouf University

Abstract:

This research aims to study the poems that dealt with the painful historical scenes of Ibn al-Labbanah, highlighting the psychological motives and poetic experience for producing such poems, which became a prominent mark on that important historical era in Andalusian studies, as our poet was a witness to those events that took place in the country. (Bani Abbad) It was a motive for the purpose of lamentation, and these scenes represented an important element in it as a topic that falls under the purpose for which the poem was said. Since the literary text carries historical value, the verb of history was used in the Arabic elegiac text from the pre-Islamic era until the Andalusian era. The Andalusian poets created a new genre with which they gained precedence over the poets of the East, which is “elegy for cities and kingdoms,” whose characteristics and ideas stemmed from the nature of the political turmoil in Andalus.

This research aims to study the poems that dealt with the painful historical scenes of Ibn al-Labbanah, highlighting the psychological motives and poetic experience for producing such poems, which

became a prominent mark on that important historical era in Andalusian studies, as our poet was a witness to those events that took place in the country. (Bani Abbad) It was a motive for the purpose of lamentation, and these scenes represented an important element in it as a topic that falls under the purpose for which the poem was said. Since the literary text carries historical value, the verb of history was used in the Arabic elegiac text from the pre-Islamic era until the Andalusian era. The Andalusian poets created a new genre with which they gained precedence over the poets of the East, which is “elegy for cities and kingdoms,” whose characteristics and ideas stemmed from the nature of the political turmoil in Andalus.

Keywords: Historical scenes; Painful scenes; Ibn al-Labbanah (507 AH).